هاجس الحزن وأثره في شعر الخنساء

رائدة مهدي جابر

كلية التربية الاساسية/قسم اللغة العربية

المقدمة

شاعرتنا هي تماضر بنت عمرو بن الشريد من سليم إحدى قبائل مضر، يرجح أنها ولدت سنة 575م. أي في أواخر الجاهلية ، عاشت فيها وأدركت الإسلام، فهي من الشعراء المخضرمين.

والخنساء لقب أُضفي عليها لأن أنفها كان متأخراً عن وجهها، وأرنبته مرتفعة بعض الشيء وهي صفة مستحبة أكثر ما تكون في بقر الوحش ، وعرفت بهذا اللقب حتى غلب على اسمها[1] لقد نشأت فى بيت كرم ، وبدأت تقول الشعر على شكل مقطوعات قصيرة، وقد تزوجت من ابن عمها رواحه بن عبد العزيز السلمي وكان شابا صاحب لهو، وقمار، ينفق ما بيده ولا يبقي شيئا وكانت تلجأ إلى أخيها صخرٍ الذي كان يعطيها ما تريد [2].

Conclusion

Al_ khan saa accguied a great position a mong Arabic literature poets. She established an important school which was the sentimental poetry school. She mainly specialized by the true lamenting .al –khan –saas poems reached the highest degrees after the death of her two brothers . sakher and muawiya. So she be come the most famous lamenting poets. Especially when her brother sakher had died because she loved him very muck .she bemoaned him and exaggerated of her sadness to become the greatest lamenting poets . her writing was in the same style of sadness . weeping .sorrow and her truly passion and that was so clear in her poems.

Al –khan saa showed in her lamenting poems the al –khan saa showed in her lamenting poems the good characteristics of sakher to prove his bravery .he was the master of his tribe rather than being the leader .he was ready to sacrifice hams elf to make his tribe in a high position . she also described him that he was still a yawing knight when he was hit by a wicked stab during the war and cased his death.

The sensitive characteristics of the hero (sakher) in alkhasaas writing included the appearance of his body .it included all the thing related to his harse evan the weapons which he had used in the battle fields showing through these images the most important heroic images wnich characterized by sakher. He had a clear face .pure face withowt scars. His face was like the bright full moon or as the shining sun .

He was smart. Elegant. Slender. Tall and had a strong body like the lion in strength and bursting into the wars .

He had long forearms no enemy could pass them and it is one of the material courge features.

وعرفت بقوة شخصيتها واعتزازها بأخويها معاوية وصخر فوصفتهما في غالبية شعرها بالكرم والجود ، وكانت تحبهما حباً جماً ، بالتحديد سنة612 م وذلك عندما قتل هاشم ودريد هما ابناء حرملة أخاها معاوية ، فقامت الخنساء بتحريض أخيها الأصغر صخر بالثأر ، و استطاع أخوها صخر أن يقتل دريد انتقاماً لأخيه ، ولكنه ما لبث أن أصيب وتوفى 612م ، وكانت الخنساء تحب أخاها صخرا جدا أكثر من أخوتها – على الرغم من أنه كان أخاها من أبيها على العكس معاوية الذي كان شقيقها ولذلك بعد مقتل صخر فإنها ظلت ترثيه بين العرب ،لدرجة أنه قيل انها أصيبت بالعمى بسبب شدة بكائها على صخر وكان هذا الحدث سبب جرحا في قلب الخنساء ظل ينزف حتى موتها،وايضا هو سبب ليفجر قريحتها الشعرية [3]، الذي تاثرت

به القلوب، وسحرت به النفوس، فأعجب به الشعراء، واهتم به النقّاد، فدرسوا صفاته، وخصائصه الفنية، وكيف لا يكون ذلك وهي من الشعراء الذين أبدعوا في كلماتهم، وصدقوا في أحاسيسهم وما الشعر إلا إظهار للشعور، وتعبير عما يدور في النفوس على شكل كلمات وأبيات .

وفي الإسلام حرضت الخنساء أبناءها الأربعة على الجهاد وقد رافقتهم مع الجيش ، وهي تقول لهم: إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله إلا هو إنكم بنو امرأة واحدة ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا غيرت نسبكم ، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية.

يقول تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) *

وأصغى أبناؤها إلى كلامها، فذهبوا إلى القتال واستشهدوا جميعا في موقعة القادسية . وعندما بلغ الخنساء خبر وفاة أبنائها لم تجزع ولم تحزن عليهم كحزنها على أخيها صخر، ولكنها صبرت، فقالت قولتها المشهورة: "الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته ."

وذلك لان أخاها صخراً له من صفات الرجولة ما رفعه إلى مكان الصدارة في قومه، ونحن حين ننظر إليه على ضوء المثل العليا في الحياة الجاهلية، نراه شخصية جديرة بالإعجاب ، وتثير في النفس الاحترام والتكريم ، وإذا نظر إليه كفارس رنت العيون إليه ، أضف إلى هذا كله قدرة على قول الشعر وأنها صفة لها الاثر في نفوس الجاهليين إليه فلا عجب إذاً أن تبكي عليه الخنساء أصدق بكاء وتخصه بالذكر في أغلب أشعار ديوانها .

لقد لفت انتباهي بعد قراءتي لديوانها أن الغالبية العظمى من أشعارها اختصت بذكر صخر وصفاته التي تحلى بها ، فارتأيت إجراء دراستي على هذه الأشعار لاستنباط الصفات التي تحلى بها والتي لأجلها نال هذا الإعجاب من لدن الخنساء حتى خصته بأغلب أشعارها . وكانت هذه هي أحد أسباب اختياري للموضوع وهو "هاجس الحزن في شعر الخنساء" أما السبب الآخر الذي دعاني لأخذ هذا الموضوع كمادة للبحث ، هو قلة اهتمام النقاد بشعر الخنساء مع أنها تعد شاعرة الرثاء الأولى فأينما يذكر الرثاء نجد اقتران اسمها به وكأنها هي التي ابتدعه. ومع هذا فأني اراها مغمورة ولم تنل ما تستحقه من العناية الكافية لنقد أشعارها ودراستها .

فالشاعرة عاشت ثلاثين عاما بعد مقتل أخويها وأبنائها، وقررت ألا تنزع ثوب الحداد عليهم طوال حياتها. ونجد أن أكثر خصائص شعرها يغلب عليه طابع البكاء والتفجع وتدفق العاطفة والتكرار. فكان البكاء من العناصر المهمة لبناء الرثاء في قصائدها لأنها سارت على وتيرة واحدة تميزت بالحزن والأسى وذرف الدموع فعبرت أبيات الخنساء عن حزنها الأليم على أخويها وبالأخص على صخر،قائلة :

ألا يا عين فانهمري بغدر	وفيضي فيضه من غير نزر
ولا تعدي عزاء بعد صخر	فقد غلب العزاء وعيل صبري
لمرزئة كأن الجوف منها	بعيد النوم يشعر حر جمر ي[4]

هاجس الحزن وأثره في شعر الخنساء

إن الحزن في قلوب البشر فطرة إنسانية، ومسحة بشرية، جعلها الله في قلوب العباد، يتألمون بالفجائع ويشعرون باللوعة ،ويتذوقون مرارة المصاب.

الحزن شيء معنوي يسري إلي القلب،و يحل بالجوارح، فيعبر عنه بوسائل مختلفة وطرائق متعددة، للتنفيس عن كربهم، ولتخفيف أحزانهم فمظاهر الحزن والاسى التي اكتنفتهما قصائد شعراء العرب تفصح عن

المعاناة وتجسم الالام التي يعانيها شعراء الرثاء ، وعلى الرغم من بعد العهد وتراخي الأمد نحن نستجيب بشكل تلقائي إلى ما ترسمه أحزان الشعراء ورزاياهم من دفقات شعورية تتخلل للنفوس لتحفر آثارها على جدران وعي المتلقي .

فالدموع إحدى هذه الوسائل التي يعبر بها الحزين عن حزنه، والمتألم عن ألمه والمنكوب عن نكبته. إن الدمع الصادق، الذي به حرارة الحزن، أول خطوة نحو الصبر وما يسر هذه العفوية لدى المتلقي تشابه معظم التجارب الإنسانية بشكل عام ، ولاسيما تجربة الفراق او الفقدان لشخص عزيز من خلال مأساة موته من جهة ، والإنسان بطبيعته ينزع إلى المشاركة الوجدانية من خلال هذه التجارب الإنسانية الأليمة من جهة أخرى .

وقد تحدث أحد المفكرين عن رأيه قائلا: ((عندما تكون حالة ذهنية مصحوبة بعاطفة متقدة ، تنزع حالة مماثلة أو شبيهة بها إلى إحداث نفس العاطفة .. ومتى وجدت حالات ذهنية معاً في وقت واحد ، فإن العاطفة المرتبطة بالحالة الأصلية ، إذا كانت متقدة ، تنزع للتحول أو الإنتقال الى الحالات الأخرى)) (5) .

فكلنا نحزن وكلنا نمر بأوقات عصيبة لكن هناك ((فرق بين الشاعر وبين الرجل العادي ، كما بين الناس كثيراً، في المجال والدقة والحرية التي تميز ما يمكن أن يقيمه من علاقات بين العناصر المختلفة التي تتألف منها تجربته)) (6), ثم يحدث الانتقال العاطفي من الشاعر الى المتلقي .

واتضح لنا أن أشعار الرثاء انتشرت أيما انتشار منذ القدم في الجزيرة العربية مصطبغة بطبيعتها القاسية, والطابع الحربي المميز للقبائل العربية، إذ لا تزال مختلف أنواع الكوارث، وما تفرزه المعارك من موت القواد والجنود والأبطال من أخصب دوافع هذا الرثاء .

ويمكن فهم تحدي العربي لجبروت الموت في الحرب من خلال رغبته في الحصول على (الخلود الممكن) الذي كان دافعا قويا له في ميادين الوغى ((على اعتبار ان ذكره سيستمر بعد موته وفي هذا تطمين لرغبة تكاد تكون متأصلة عند البشر عموما)) (7) .

وهذه المراثي في استهلالاتها هي في مرحلتها الواقعية بعد ان تعمقت جذورها الأسطورية وتلاشت معانيها ((في الجزيرة العربية امام الشعور الإنساني بالحزن المحض)) (8) أي ان الرثاء قد تحول الى التعبير الواعي عن حقيقة الحزن الذي يجده الشاعر في نفسه، واهتمامه بإظهار اثار الفقد بصور مختلفة، لها دلالاتها النفسية البارزة من منظور منهج البحث النفسي ، وبواعثها في نفس الراثي ربما تحمل من مشاعر حزينة وصادقة ، والتي تكون العاطفة .

ومن اكثر الاستهلالات الرثائية إفصاحا عن لواعج الحزن الذي يكابده الشاعر، تلك التي يطالب فيها الشاعر بصب الدموع ، لعلها تطفئ حرقة الوجد الذي يجده الشاعر بفقد مرثيه ، وكأن الشاعر يعاقب نفسه ويلومها لانه يتلذذ بالحياة ومباهجها ومرثيه قد طواه النسيان بعد ان طوته الأرض تحت أطباقها او أكلته سباع الأرض والسماء فلم تبق له باقية بل لعل الحال الأخيرة اكثر إلماً من غيره عند الشاعر، إذ ان الافتراس لا يبقي أثرا للميت فلا يكون له قبر يدل عليه ويحيي ذكراه بين أهله ، فيكون للموت دلالتان : مادية ، ومعنوية مما يشكل دافعا اكبر إلى إثارة مخاوف الشاعر من الفناء .

أخبرنا التاريخ أن الخنساء نكبت في حياتها بموت أخويها معاوية وصخر، وزوجها الثاني، لأبنائها الأربعة، وكان موت معاوية وصخر قد فجرا قريحتها الشعرية وقد ذكرنا فيما سبق شيئا من ذلك.

ونحن في هذا البحث نهتم بإبراز ، أشعارالشاعرة الخنساء التي عرف عنها في رثاء أخيها صخر، والتي امتازت بوصف هيئته ، فتغنت بصفاته الخلقية بشكل لا شك فيه اذا سكنت أوجاعها لبرهة ، فهي هنا تبكي

أخاها صخراً وهو المقصود بقولها – أبا حسان – بكاء حاراً لما امتاز به من جمال وكرم الضيافة والسيادة فهو الرجل الكامل الخلق والخليقة والذي ينتمي إلى أخوال عرفوا بحسبهم ونسبهم العالي أي أنه ينتمي إلى بيت عز وشرف .

ابو حسان كان ثمال قومي فأصبح ثاويا بين اللحود
رهين بلى وكل فتى سيبلى فاذري الدمع بالسكب المجود
فلا يبعد ابو حسان صخر وهل يرسمه صير السعود[9]

فهذه الخنساء لا تستطيع كتمان انفعالاتها من شوق و يأس وهي ترى من تحب قد اخذتهم المنية، وقد تركوا خلفهم اختا تردد اسماءهم في فؤادها ، وهذا ما صرحت به قائلة:

أبكي (أباحسان) واستعبري على الجميل المستضاف المخيل[10]

تقول أن هذا اقل تعبير عن الحزن، وأقصر بيان عن الألم فكيف يطيب عيش بعد أبي حسان :

آقول آبا حسان لا العيش طيب وكيف وقد أفردت منك يطيب[11]

وأن الذي ينظر لديوانها يجد أنها مخالفة للنسق الجاهلي، من حيث الوقوف على الأطلال، والبدء بالمقدمة الغزلية، فهي في معظم قصائدها تبدأ بمخاطبة عينيها والحديث عن البكاء، والدمع، والدهر في بعض الأحيان ، ثم العودة السريعة من البكاء والحزن ومخاطبة العين إلى الإشادة بمناقب المرثي، وذكر فضائله ومحامده، البكاء عند الخنساء كان وصفا "حكائيا"، ينطوي على محاكاة العين، فالعين مصدر الدموع والبكاء مصدره العاطفة التي تتفوق في بعض الأحيان على العقل، سواء أكانت هذه العاطفة حزينة او غير ذلك، فمن ذلك قولها :

يا عين مالك لا تبكين تسكابا إذ راب دهر وكان الدهر ريابا
فابكي أخاك لأيتام أرملة وابكي أخاك إذا جاورت أجنابا[12]

ثم تمضي في الإشادة بالمرثي، وإضفاء كل ما تستطيع من قيم ومثل هي وتحاول أن تجعل المرثي مثالاً يقتدي به .

فصفة الكرم، والشجاعة، والوفاء، وغيرها، ومن الصفات ذو قيمة اجتماعية، بألفاظ مختارة، ومعانٍ تجسد شخصية المرثي وصفاته العالية حيث تقول :

وإن صخراً لوالينا وسيدنا وإن صخرا إذا نشتوا لنحار
وإن صخرا لمقدام إذا ركبوا وإن صخرا إذا جاعوا لعقار
وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار[13]

الى ان تقول :

جلد جميل المحيا كامل ورع وللحروب غداة الروع مسعار[14]

أي أنه صلب الجسم ، جميل الوجه ، كامل الخُلق والخلقِ ، شجاع موقد الحروب ومؤججها عند وقوعها.

من حس لي الأخوين كالغصنين أو من رأهما[15]

وهنا قصدت بالأخوين – معاوية وصخر – فهما كالغصن الجميل الرشيق ويندهش كل من رآهم . فشبهتهما بالغصن للدلالة على رشاقة قوامهما وبهاء منظرهما .

وتتحدث عن نفسها مبينة أن غروب الشمس وطلوعها قد يصل بها إلى قتل نفسها، ولكن تسلي نفسها بكثرة الباكين حولها وإن كانوا لا يبكون مثلها أخيها، ولا الحزن عندهم كما هو عندها، فهي وسلب منها حياتها يوم فارقت صخر، تقول :

يذكرني طلوع الشمس صخراً وأذكره لكل غروب شمس
فلولا كثرة الباكين حولي على اخوانهم لقتلت نفسي[16]

يتكرر كثيراً فى شعر الخنساء ،لفظ ذكرتك والغاية منه التأكيد على تعلق الشاعرة بأخيها الذى رحل إلى دار البقاء ، وارتبط التذكر عندها بالبكاء، فى حين يظل الصدر كاتما للحرقة الداخلية ، وتلك النار التى لا يطفئها أي عزاء مهما كان نوعه ، وإن قلب الخنساء يذوب من شدة المعاناة.

عمدت الشاعرة الى تهييجها من جديد فتزجر عينيها لجمودهما، كما في استهلال إحدى المراثي:

ألا يا عين ويحك أسعديني لريب الدهر والَزمن العضوضِ*
ولا تبقي دموعا بعد صخر فقد كلّفت دهرك أن تفيضي [17]

إلا أن جمود عينيها هو في الحقيقة متأت من الذهول والصدمة النفسية القاسية التي غشيت إدراك الخنساء إذ (لا يكون البكاء إلا من فضل، فإذا اشتد الحزن ذهب البكاء) [18].

ونلاحظ كذلك بأن الشباب هو أجمل وأكثر الصفات التي لها أثرها في معاني الرثاء وقد يترك موته أثارا عميقة قاسية في نفوس أهله وعشيرته يتجاوز في بعض الأحيان الأثر الذي يتركه موت الكهل . ولذا نرى الخنساء قد نسبت هذه الصفة لصخر لتصل بها إلى أعمق درجات التأثير في النفوس ولإثبات صفة الحلم للشاب ذي الخبرة الواعية للحرب على رغم من صغر سنه ولقدأوردت ما يقارن هذه الصفة في قولها عنه فتي السِن كهل الحلم لامتسرع ولا جامد جعد اليدين جديبِ[19].

فهي هنا تشير إلى أنه صغير السن في مقتبل عمره إلا أنه مع ذلك – كهل الحلم – كأنه في سن الكهولة في حلمه فهو غير متسرع في المضاء قدماً في الأمور الصعبة وهذه استعارة لطيفة للدلالة على حلمه ورزانته وتأنيه في اتخاذ القرارات الصعبة ، فاستعارت لفظة الكهولة للحلم مع أن الكهولة هي صفة للإنسان المتقدم في السن وذلك للدلالة على حلمه. وهو أيضاً كريم جواد وليس جامد العطاء وإنما ينساب العطاء من بين يديه كالعيون الجارية فالكناية هنا عن عظم كرمه وغزارته ينفي صفة تجعد اليدين، ووصفها له أنه ما يزال فارساً حديث السن الذي اختطفه الموت في مقتبل عمره وعندما أصيب في الحرب أرقدته حولاً حتى وفاته قائلا :

ولا يزال حديث السن مقتبِلا وفارسا لا يرى مثل له رأس[20]

أي أنه لا يزال شاباً في مقتبل العمر عندما وافاه أجله أثر طعنة تلقاها في الحرب التي خاضها لطلب الثأر لمقتل أخيه معاوية ، والتي عانى من آلامها طويلا . ومع ذلك فإنه كان فارسا شجاعا لا يرى له مثيل في الصمود والثبات ، وهو يقاتل الأعداء في ساحات الوغى . وأشارت الخنساء إلى ذلك بقولها :

يـــــا عـــــين ابكـــــي فارســـــا حســـــن الطعـــــان علـــــى الفـــــرس[21]

إنها العاطفة الصادقة التي تنبض بالحزن والأسى، وتتدفق باللوعـــة علـــى فـــراق أعـــز النـــاس. وفي موضع آخر تلتفت إلى نفسها بعد حديثها عن البكاء وطلبها من عينها أن تجود عليها بالبكاء مذكرة إياها بأن هذا الذي تبكينه ليس لأن الذي بيني وبينه هذه الصلة من القربى فقط، ولكنه فتى سيدا في قومه، رئيسا في عشيرته يتصف بالجرأة ، والجمال، والكرم، من أهل المجد صاحب نخوة،حتى وإن كان أصغر القوم ســـنا ، فهو يرى أن من أفضل مكاسبه أن يمدحه الناس،ويذكرونه بفعاله الحميدة وخصاله الفريدة، وتحث عينيهـــا أن تجودا بالدمع الغزير ليتدفق حزناً على أخيها صخر بحر الكرم و الجود و العطاء الـــدافق الفتـــى الجـــريء الجسور ذو الطلعة البهية جميل الخلقَة و الخلق ، صاحب القامة الطويلة و المهابة العظيمة، شـــريف قومـــه، فالنبرة هنا تختلف، تخاطب عينيها بصورة التودد والتلطف والطلب بصورة بعيدة كل البعد عن الشدة والعنف, فهي بعد الطلب تردد مناقب الفقيدسبب طلبها وكأن هناك علاقة حميمة بـــين عينيهـــا وإحساســـها الـــداخلي. تقول:

أعينـــــــى جـــــــودا ولاتجمـــــــدا ألاتبكيـــــــان لصـــــــخر النـــــــدى
ألا تبكيـــــان الجـــــرئ الجميـــــل ألا تبكيـــــان الفتـــــى الســـــيدا
طويـــــل النجـــــاد رفيـــــع العمـــــاد ســـــاد عشـــــيرته أمـــــردا
إذا القـــــوم مـــــدوا بأيـــــديهم إلـــــى المجـــــد مـــــد اليـــــه يـــــدا

فنال الذى فـــوق أيـــديهم مـــن المجـــد ثـــم مضـــى مصـــعدا تـــرى الحمـــد يهـــوى إلـــى بيتـــه يرى أفضل الكسب أن يُحمَدا[22].

حيث شبهت الشاعرة عينيها بشخصين تطلب منهما العون فانها استعارة مكنية وهي صورة تـــوحي بشدة الحزن والتي جعلت الكناية عن قامته الطويلة بطول حمالة السيف النجاد فان هذه الأبيات إثبات و تقرير صفات الكمال و البطولة لأخيها بأنه قوي شجاع مدافع عن الحق ومتقصي للحقائق أينما كانت فهـــو ناصـــر المظلوم مقتص من الظالم ، فقد استخدمت الخنساء من الفنون البلاغية الاستعارة وهي : نقل العبـــارة عـــن موضع استعمالها من أصلها اللغوي إلى غيره لغرض التعبير عن قوة التصوير والتخيل والإبداع وإيصال ما يروم الشاعر إيصاله إلى المتلقي [23] .

فقد استعانت الخنساء بهذا اللون البلاغي للتعبير عما يحدث في نفسها، وحاولت تلوين نصها بهذا اللون البلاغي، تقول :

بكـــت عينـــي وحـــق لهـــا العويـــل وهاض جناحي الحدث الجليل [24]

فتشبه نفسها بالطائر الذي لا قدرة له على الطيران من فجيعتها فأنها استخدمت التشبيه لإيصال المعنى إلى المتلقي والتأثير في نفسه ففي هذا البيت تشبه أخاها بالجبل الذي توقد على قمته نار، ثم أصبح هذا البيت، مثلاً سائراً تقول :

وإن صـــــخراً لتـــــأتم الهـــــداة بـــــه كأنـــــه علـــــم فـــــي رأســـــه نـــــار[25]

وقد تحدثت الشاعرة ، عن أهم هذه الصفات التي أوردتها عن أخيها صخر في شعرها الرثائي لتثبت بها شجاعة في هذه المراثي وهو قوي البنية وسليم من كل عيب وداء فيظهر في الحروب كأنه أسد مكشر عن أنيابه عند النزال وما أن يراه العدو بهذا المظهر حتى يلوذ بالفرار هاربا من غضبه وبطشه :

أســـدانِ محمـــرا المخالـــب بحـــران فـــي الـــزمنِ الغضـــوب الأنمـــر[26]

أن أخويها – معاوية وصخراً – كانا كالأسدين في الحروب لقوتهما وبسالتهما وخبرتهمـا القتاليـة و لا يبارزهما أي شخص من أقرانهما ، فتتخضب أيديهم بدماء أعدائهم لكثرة القتال كما تخضب مخالـب الأسـد بدماء الفريسة بعد أن تمزق إلى أشلاء . وهذه هي أحدى الأدلة البارزة على شجاعتهما وكذلك لارتباط فكرة الطول بالفروسية وجدنا الشاعرة تقرن طول صخر بطول الرمح أو بطول خمائل السيف لتعزز بها الصورة البطولية الفذة لأخيها صخر، فقالت :

ابكـــــي علـــــى اخـــــوي م والقبـــــر الـــــذي واراهمـــــا
رمحـــــين خصـــــين فـــــي كبِـــــد الســـــماء ســـــناهما[27]

فقد شبهت الخنساء هنا أخويها – معاوية وصخراً – طول قوامهما بالرمح فهما فارسان طـويلان مرشـوقا القوام كالرمح الشاخص في الأرض ، والثابتان في مواجهة الأهوال والأخطار ورد العداء عن الديار لذا علا مجدهما فبلغ عنان السماء سناهما .

ولا يكون بكاء الشاعرة مصرحا به في بعض الصور الفنية ذات البعد النفسي المباشرة كما مر بنا سابقا ، بل يمكن رصده من خلال اللغة وألفاظ ذات زخم نفسي تحمل حقيقة انفعالات الشاعرة بدلالات نفسـية غيـر مباشرة، إذا (ليست الألفاظ في بساطتها أو جلالها هي المحك، ولكن الطاقة أو العاطفة أو الحركة التي يسبغها الشاعر عليها هي التي تحدد قيمتها)[28].

فنلاحظ أن الخنساء وظفت هذه العناصر في أشعارها خير توظيف لإبراز قوة أخيها صخر بصورة رائعة ، فوصفته بصفات رائعة أبرزت من خلالها قوته واندفاعه في القتال . وكذلك أبرزت من خلال هذه الصفات الحسية المختلفة العديد من مظاهر الشجاعة والبطولة لأخيها صخر . فإذا أنعمنا النظر في قول الشـاعرة اذ تقول:

مـــن كـــان يومـــا باكيـــا ســـيدا فليبكيـــــه بـــــالعبرات الحـــــرار
ولتبكيـــــه الخيـــــل اذا غـــــودرت بســـــاحة المـــــوت غـــــداة العثـــــار
وليبكيـــــه كـــــل اخـــــي كربـــــة ضـــــاقت عليـــــه ســـــاحة المســـــتجار [29]

وتقول:

انى لنا إذ فاتنـــــــــا مثلـــــــــه للخيـــــــل إذ جالـــــــت وللعاديـــــــة[30]

وبسبب شدة سرعتها نراها تنصب كانصباب ماء الخليج في عدوه أو أنها لشدتها تبدو كالماء شديد الغليان بالمرجل وإلى هذا أشارت الخنساء بقولها :

ومســـــتنة كاســـــتنانِ الخلـــــيجِ فوارة الغمـــــــرِ كالمرجـــــــلِ[31]

أي أن هذه الخيل تعدو إقبالا وأدبارا أي تقع أرجلها مواقع أيديها عند عدوها فهي تبدو كأنها مياه الخليج المنصبة الهادرة لسرعتها ، وهي أيضا تعدو بسرعة هائلة وكأنها المياه التي تغلي بشدة في المرجل مما يدل على سرعتها القصوى في عدوها .

وإن الجانب الأهم في ذلك أنها تبكيه لما امتاز به من خصالٍ حميدة وبطولة نادرة افتقدتها في غيره ولونت الخنساء شعرها بألوان متعددة، ومتنوعة، محاولة التأثير في الآخرين، بما تشعر وتحس به من ألم وحزن . وهذ مظهر من مظاهر التلوين هو استخدامها (للنداء) تقول:

يا عين ابكي فارسا حسن الطعان على الفرس[32]

وقولها :

يا عين بكي بدمع غير انزاف وابكي لصخر فلن يكفيكه كاف[33]

ففي هذه الأبيات وغيرها استخدمت حرف النداء " يا " ، وذلك من نتاج الفاجعة التي ألمت بها، ومن إحساسها الشديد بالفقد الذي جعلها تنادي عينيها بصوت عال لتحقيق هدفها بصيغة الإلزام . حيث يكون المنادى قريبا من المنادي معنويا أي لقربه من قلبه ، ولشعوره بضيق أو الحزن الشديد.

كما أن الخنساء استخدمت الهمزة في النداء وذلك لتركيز الإنفعال لانها تعبر عما في داخلها، تقول :

أعيني جودا بالدموع على صخر على البطل المقدام والسيد الغمر[34]

وفي قولها

أيا عيني ويحكما استهلا بدمع غير منزور وعلا[35]

يدل على الشعور النفسي الذي يغلي ولا يتوقف وما أن تشعر بتوقفه أو فتوره تلجأ إلي التنبيه لمصدر التعبير عن هذا الشعور بعدم الفتور أو التوقف.

ومن الألوان الاخرى التي نجدها في شعرها تقول :

أعيني هلا تبكيان على صخر بدمع حثيث لا بكي ولا نزر[36]

فاستخدمت هلا حيث شعرت أن عينيها قد نزرت في البكاء وضعفت عن التعبير فتطلب من عينيها البكاء وسكب الدمع بأسلوب المعنف للمخاطب وهكذا حاولت الخنساء تلوين قصائدها بألوان متعددة، لتجسد المعاناة الذاتية ولتبرز بؤس حياتها من جراء فقدها لصخر . ولتظهر الشعور الداخلي، والإحساس النفسي محاولة التأثير في نفس المستمع، وإشراكه في حزنها وألمها .

وتلجأ أحياناً إلى نعي تلك الفضائل مع المرثي فكأنها ذهبت بذهابه، فلم يصبح بعده من يجيب الندى ولا من يحمي الحمى، ويدافع عن العرض ويقود الحرب فقد دفنت المكارم بدفنه وضاعت الأخلاق النبيلة في ثراه، تراها تجسد ذلك كله في قولها الذي تقول فيه:

دق عظمي وهاض مني جناحي هلك صخر فما اطيف براحا
وعليه ارامل الحي والسفر م ومعتر هم به قد الاحا
فارس يضرب الكتيبة بالسيف م اذا اردف العويل الصياحا
فلم ينج صخرا ما خدرت وغالة مواقع غاد للمنون ورائح

الى ان تقول:

فارس الحرب والمعمم فيها مدرة الحرب حين يلقى نطاحا [37]

وتظهر الفكرة جلية واضحة في قولها :

يا صخر قد كنت بدراً يستضاء به فقد ثوى يوم مت المجد والجود[38]

وهكذا حاولت الخنساء أن تحفر في الأذهان مناقب المرثي ومحاسنه، كي لا تنمحي على مر الزمن و لا يصيبها شيء من الزوال أو النسيان، إنها كل ما تملك لتبقي على المرثي وجعله دائما أمامهم.

ولم تكتف بذلك بل حاولت إشراك الطبيعة في حزنها وألمها الذي تعيشه محاولة بذلك نقل مصابها من الذاتي الخاص إلى عام، فتقول أن الأرض تزلزلت لموت أخيها وزالت الكواكب، وبدت الشمس كاسفة، والدنيا مظلمة، وان السيوف والخيول وغيرها أضحت باكية على رحيل أخيها، تقول:

فخر الشوامخ من قتله وزلزلت الأرض زلزالها

وزال الكواكب من فقده وجللت الشمس إجلاها (39)

وقولها :

فيا عين بكي لأمرى طال ذكره له تبكي عين الراكضات السوابح

وكل طويل المتن أسمر ذابل وكل عتيق في جياد الصفائحِ (40)

فنرى أن الشاعرة تحاول إسقاط مشاعرها على الطبيعة ، لأنها تحاول إشراك هذه المظاهر بتجربتها المؤلمة، وهذا فيه دليل على شدة الإحساس بوطأة المعاناة ومرارة الفقد ، قد أكثرت من هذا الأُسلوب في مستهل مراثيها لأخويها صخر ومعاوية، فعيناها لاترقان أبداً، نذكر من هذه الاستهلالات الباكية قولها ترثي أخاها صخراً:

يا عين جودي بالدموعِ فقد جفَت عنك المراود

وابكي لِصخر إنّه شق الفؤاد لما يكابد(41)

وقد تعتمد الخنساء الصور البيانية المتضمنة لمعاني البكاء فتشبه دموعها بمياه الخليج في غَزارتها وسرعة جريانها

أعيني فيضي ولا تَبخلي فإنك للدمعِ لم تبذلي

وجودي بدمعك واستعبري كسح الخليج على الجدولِ

على خير من يندب المعولو ن والسيدِ الأيِد الأفضلِ* (42)

وتعبر الشاعرة عن فخرها لصخر بين قومه في ساحات المجد و الشرف وذلك من خلال الموازنة و المقارنة الرائعة فقومه عندما يتسابقون الى المجد فهو يشاركهم في النبل و العظمة ويعلو عليهم بل يفوق والرفعة و لذلك فهو يحظى بالثناء من الناس و الاعتراف بالجميل جزاء لأعماله الرائعة ، وهو يؤمن أن أعظم ربح للإنسان أن يكون محموداً و محبوباً من الناس وتقول:

إذا القـــــــوم مـــــــدوا بأَيـــــــديهمُ إلـــــى المجـــــد مـــــد إلَيـــــهِ يـــــدا
فـــــــنال الـــــذي فـــــوق أَيديهـــــم مـــــن المجـــد ثـــم مضـــى مصـــعدا
تـــــرى الحمـــــد يهـــــوي إلـــــى بيتـــــه يـــــرى أفضـــــل الكســـــب أن يحمـــــدا(43)

الصورة توحي بقيمة المجد ومدى اهتمام الفضلاء به في تصوير المجد بشيء مادي يتسابق القوم في الوصول اليه تأكيدا على ما سبق صخر اليه ،فهنا استعارة لتجسيم المجد، وليبين لوعة الشاعرة ولاسيما اذا كان الخطاب موجها نحو ذات الشاعرة وكانها تستمع الى صوت داخل أعماقها يذكرها دائما بحزنها، والخنساء من الشعراء الذين استخدموا هذا الفن التعبيري ، والشكل المادي لتجسيد صورة الحزن والأسى والنواح والبكاء الذي يعبر عن عواطف داخلية، يعكس آثار الصدمة النفسية التي تعاني منها الشاعرة من جراء فقدها لأعـــــــز النـــــــاس عنـــــــدها .

الصورة التي نجدها في هذا النوع من الرثاء عند الخنساء تتمثل في ندب المرثي والنواح والبكاء عليه ولعل خير ما يصور ذلك، ويؤازره هو شيوع المطالع البكائية في ندبها وبكائها، والتي تعبر عن شدة الحزن وكثرة البكاء حيث تقول :

يا عـين فيضـي بـدمع منـك مغـزار وابكـي لصـخر بـدمع منـك مـدرارا
إنـي ارقـت فبـت الليـل سـاهرة كأنمـا كحلـت عينـي بعـوار(44)

وقولها :

أمـن حـد الأيـام عينيـك تهمـل تبكي علـى صـخر وفـي الـدهر مـذهل
ألا مـن لعـين لا تجـف دموعهـا إذا قلـت أقشـت تسـتهل فتجفـل(45)

كما أن تكرار المطالع البكائية يكشف عن وعيٍ ذاتي بمأساة الشاعرة الإنسانية كما انه يعكس رغبة الشاعرة في إبراز حزنها وفجيعتها وحجم الخسارة التي لحقت بها وخاصة بعد رحيل أعز الناس عندها الذي كان مصدر سعادتها، وسندها، تقول :

ريـب الزمـان وكـل الضـر يغشـاني لقـد أضـحكتني زمنـا طـويلا(46)

وتقول:

يـا عـين فيضـي بـدمع منـك مغـزار وابكـي لصـخر بـدمع منـك مـدرار (47)

تقول:

يـا عـين جـودي بالـدموع علـى الفتـى القـوم الاغـر

وتقول:

يـاعين جـودي بـدمع غيـر منـزور مثـل الجمـان علـى الخـدين محـدور
يـا عـين جـودي بالـدموع الغـرار وابكـي علـى اروع حـامي الـذمار(48)

وفضلاً عما يوحيه من دلالة نفسية مملؤة بالتفجع والإحساس برهبة الموت، فإن من أسرار جودة هذا الاستهلال عامة والابتداء ولاسيما أن الشاعرة تفصح عن دهشتها من بكائها وفقدانها اخويها على الرغم ما

يقين الشاعرة بحتمية الموت على كل الأحياء، فَلم يستثنى الموت صخرا ومعاوية ، وأن كل كرمهما ونبل أفعالهما لم تحل دون سيرهما على هذا الطريق ، إلا أن دموع الشاعرة ظلت تسفح على ضريح هذه الحقيقة المؤلمة.اذ تقول:

يـــا عـــين جـــودي بالـــدمو ع المســـــــتهلات الســـــــوافح
وابكـــــي لصـــــخر اذا ثـــــوى بـــين الضـــريحة والصـــفائح(49)

فهي تحاول وصف مدى حزنها وحرقة بكائها من خلال تساؤلات واستفهامات تجعلها توثر في نفس كل من يراها، فهي كغيرها من الشعراء كثيرا ما يستفهمون (في دواخل أنفسهم، عن أسباب ذلك اليأس الذي يتملك مشاعرهم وأحاسيسهم، فتنطق أشعارهم مصرحة به لكي تفهم حقيقتهم) (50)، وذلك ما يستشف من قولها:

مـــا بـــال عينـــك منهـــا دمعهـــا ســـرب أراعهـــا حـــزن أم عادهـــا طَـــرب*
أم ذكـــر صـــخر بعيـــد النـــوم هيجهـــا فالـــدمعُ منهـــا عليـــه الـــدهر ينســـكب
كـــم مـــن ضـــرائك هـــلاك و ارملـــة صـــلوا لـــديك فزالـــت عـــنهم الكـــرب(51)

فإننا نجد عاطفة صادقة ممزوجة بالحزن الذي وصل إلى درجة النواح، وذكر محاسنه، فمزجت بين، عاطفة الحزن، الحب تقول في هذه الابيات:

قـــذى بعينيـــك أم بـــالعين عـــوار أم ذرفـــت إّذ خلـــت مـــن أهلهـــا الـــدار
كـــأن عينـــي لـــذكراه إذا خطـــرت فـــيض يســـيل علـــى الخـــدين مـــدرار
تبكي لصخر هي العبرى وقد ولهت ودونـــه مـــن جديـــد التـــرب أســـتار(52)

ان العين إذا أصابها عور أو وقع بها قذى فإنها تهمل بالدمع . ثم تشبهها بالسيل الفائض ولم تقل مطرا أو ماء لأنهما قد لا يكونا غزيرين . بينما السيل من أقوى وأكثف أنواع المياه جريا ونزولا ، ولم تكتف بالسيل بل هو فائض لكثرة سيلانه وجريانه وعدم انقطاعه . وهذا البكاء على خديها من أجل صخر فهي العبرى، أي بمثابة الأم الجزعة على ولدها، ومع ذلك تتهم نفسها بالقصور وفي بعض الأوقات تستبدل الخنساء الصورة المائية لغزارة دموعها وسرعة انهمارها، بصورة مماثلة لها من حيث اللون والسرعة في الجريان، حينما تشبه عبراتها المتسارعة بافراط كحبات عقد من الؤلؤ، بل ان دموعها ــ لشدة حزنها أسرع انحداراً من هذه الؤلؤ المنثور، حيث تقول:

ألا مـــــا لعينيـــــك لا تهجـــــع تبكِـــــي لـــــو ان البكـــــا ينفـــــع
كـــــأن جمانـــــا هـــــوى مرســـــلا دموعهمـــــا أوهمـــــا أســـــرع
تحـــــدر وانبـــــت منـــــه النظـــــا م فانســـــلَمن ســـــلكه أجمـــــع (53)

وقولها في قصيدة اخرى :

كـــم مـــن منـــاد دعـــا والليـــل مكتنـــع نفســـت عنـــه حيـــال المـــوت مكـــروب(54)

فحزن الشاعرة وذهولها يطالعنا من استفهامه التفجعي، فضلاً عن إيمان الشاعرة لحادثة قتل أخويها في الابيات السابقة ، أي أن أخويها رحلا عن دنيا الأحياء رغما عنهما، فتركا دارها خالية فتهيج لواعج الهموم وبواعث البكاء لدى الشاعرة :

بكوا على صخر بن عمرو فانه يسير اذا ما الدهر بالناس اعور
كان محمودا شمائله مثل الهلال منيرا غير مغمور
والوحش تبكي شجوها لما اتى عنه الخبر
يا عين جودي بالدموع الغزار وابكي على اروع حامي الذمار(55)

وتقول:

فخنساء تبكي في الظلام حزينة وتدعوا اخاها لا يجيب معفرا
والانس تبكي ولها والجن تسعد من سمر وابكي اخا(56)

وتقول أنها ستبكي صخراً في كل مساء وشروق، وكل ما ناحت مطوقة، مبالغة منها في الحزن والأسى، تقول :

إني سأبكي أبا حسان نادبة ما زلت في كل إمساء وإشراق(57)

ويفهم من خلال لجوء الشاعرة إلى هذه المبالغات والإفراط في تصوير حزنها أنها تحاول حفر مأساتها ومعاناتها في نفوس المتلقين جميعاً ، و في ضمير الإنسانية جمعاء، وذلك في قولها:

وان صخرا لوالينا وسيدنا وان صخرا اذا نشوا ،لنحَار
وان صخرا لمقدام ، اذا ركبوا وان صخرا ، اذا جاعوا :لعقار
وان صخرا لتأتم الهداة به كانه علم ،في راسه نار
حمال الوية ،هباط اودية شهاد انديه ،للجيش جرار(58)

ومن الصور الأخرى المجسمة لعاطفة الحزن لدى الشاعرة في مراثيها صورة الليل الطويل الكثير بالهموم، مما يجسم الزمن النفسي عند الشاعرة الحزينة حينما ترفض الاستجابة إلى طبيعية وحركة الكون والمخلوقات، بل ان همومها لا تكتفي في ليلها وحسب وإنما تعمد أيضا الى مضجعها وكأن النار أضرمت في ثيابها ، فتتحدث عن السهر والأرق، فهي تقول:

أرقت ونام عن سهري صحابي كان النار مشعلة ثيابي
إذا نجم تغَور كلفتني خوالد ما تؤوب الى مآب*
فقد خلّى ابو اوفى خلالا علي فكلها دخلت شعابي (59)

وفي كثير من الأحيان يكون البعد الزمني الذي توجد فيه الهموم حضورا لها هو (الليل)، إذ ان طبيعة الحياة في عصر قبل الإسلام كانت تحمل العربي الكثير من المهام والمشاغل في النهاره،فان ظلمة الليل الموحشة وجلالها ورهبتها، لتوحي للمرء – ولا سيما الشاعر – إلاحساس الوحدة وتذكره بالموت الذي وسع كل شيء، فتتداعى عليه الذكريات المؤلمة الأخرى كالسيل الجارف. كأن خيال محبوبه الراحل ، أو حزن لفقد أخ، أو أب، أو صديق.

و من هذه الصور التي أفصحت عن ثقل الزمن في بعده النفسي فتبدو الخنساء كإحدى النساء النائبات اللواتي يقمن حول النعش بتموج جسمي وروحي مع كل حركة نغمة من نغمات الرثاء والنواح في تكرار وترديد وفي تسيير العواطف على جناح الندم والأسى.

وتتحدث عن الشيب وسؤال الناس لها عن سبب شيبها المبكر تقول:

نساء شبت من غير كبرة وأيسر مما قد لقيت يشيب (60)

وفي بعض الأحيان نجد الشاعرة تسقط بالبكاء، او لنقل رغبتها في البكاء، تشعر من خلالها بملاءمتها للحالة النفسية التي تمر بها وتجربتها الشعورية الحزينة، فتلجأ الى جعل الطبيعة تشاركها بكاءها ونواحها، لتخفف من حدة قلقها بعد ان وجدت منفذا لإشباع دوافعها المكبوتة، فضلا عن البعد الأسطوري (61) الذي يتضمنه هذا الضرب من الصيغ التعبيرية عن البكاء ولعل الخنساء أحست (بالطاقة النفسانية للغة، إذ هي تعمد إلى معجم بهي، وحي قدر دوما على تجسيد ما هو مجرد وجعل الماهيات ماثلة شاخصة) (62).

وبعد استشفاف البعد النفسي المهيمن على هذا الاستهلال ، لايسعنا إلا أن نقر بنجاحه في ابراز حزن الشاعرة والصراع النفسي الذي أثارته لديها مفارقات الدهر.

وفي ديوانها قصائد ومقطوعات على بحور مختلفة الواقع تقودها ذكرى الاعمال المجيدة ومأثر صخر الحميدة وتستنير بأضواء تحيى الفقيد.(63)

ولعل قدامة بن جعفر (ت337هـ) حين قرر ان (ليس بين المرثية والمدحة فصل الا ان يذكر في اللفظ ما يدل على انه لهالك، مثل: كان، وتولى، وقضى نحبه، وما شابه ذلك. وهذا ليس يزيد في المعنى ولا ينقص منه، لان تأبين الميت إنما هو بمثل ما كان يمدح في حياته)(64) انه نظر الى شعر الرثاء من دون ان يلتفت الى طبيعة التجربة الشعورية الاليمة التي تنبثق عنها معظم المراثي (65) ،وهناك بعض الاقوال والاراء التي وردت على اشعار الخنساء .

قال النابغة الذبياني: ((الخنساء اشعر الجن والانس)) فان كان كذلك فلم لم تكن من اصحاب المعلقات واظن ان في هذا القول مبالغة .

انشدت الخنساء قصيدتها التي مطلعها :

قذى بعينيك ام بالعين عوار ام ذرفت اذ خلت من اهلها الدار[66]

فرد عليها النابغة الذبياني في سوق عكاظ قائلا :لولا ان الاعشى " ابا البصير " انشدني قبلك لقلت انك اشعر من في السوق .

وسئل جرير عن اشعر الناس فاجابهم : انا، لولا الخنساء قيل فيم فضل شعرها عنك قال بقولها.

ان الزمان وما يغنى له عجب ابقى لنا ذنبا واستوصل الراس

ان الجديدين في طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد الناس [67]

((كان بشار يقول :انه لم تكن امراة تقول الشعر الا يظهر فيه ضعف .فقيل له : وهل الخنساء كذلك فقال :تلك التي غلبت الرجال)) [68].

وقد حاول بعض الباحثين وضع تفسيرات نفسية لهذه الظاهرة في شعر الرثاء، (بأنه هرب من الموت الى الحياة التي تتمثل في عاطفة الحب) [69]، ولا شك ان هذا الهرب كان بدافع غريزة

حب البقاء التي يتجاذبها الوعي البشري ، ومن ابرز استهلالات الهموم ذكرناها سابقا التي حظيت باهتمام النقاد والبلاغيين العرب القدماء وحازت استحسانهم لتحقيقها البعدين الفني والنفسي لصورة الهم . ويعد الإفصاح عن الهموم في استهلالات القصائد من ابرز التجليات الفنية التي تعتمدها الشاعرة لحالاتها النفسية التي تجيش فيها وتتجسم بها مشاعرها القلقة، أو الخوف، أو الحزن كأمواج البحر الصاخبة، تكاد تعصف بقوتها حواس المتلقي وتسلط عليه وواقعها المأساوي . وقد استجادوها لحسنها وغرابتها [70]، وللملائمة بين شطريها [71].

ومن بواعث الهموم والإحباط لدى الشاعرة ، فالرحلة في ذاتها كانت هاجس الإنسان العربي، واحد أهم بواعث معاناته، وموردا من موارد الحرمان والأمل البعيد الذي يلوح كالسراب في وعيه الظاهر، والمتمرد الجامح في الشعور. البعد النفسي المطلق تمثل رغبة الإنسان المستمرة في الاستقرار والاتزان النفسي المتأتي من إشباع كل حاجاته الوجدانية والمادية ، وهي تمثل (إحساس الإنسان وتجربته الخاصة حين ضربت على أوتار معاناته، ووحدت ظل البيئة والزمان والمكان لعموم الإنسان طاوية كل شحوب الزمن وماضيه لتعيش في إحساسه النفسي وشعوره الذاتي) [71].

وخلاصة القول إن الخنساء وظفت كلمة البكاء للتعبير عن حزنها وألمها فأتت بها في سياقات مختلفة للتعبير عن أغراض متعددة . وحاولت تلوين بكائها بألوان تستطيع من خلالها التأثير في نفس السامع ، وإيصال الفكرة إلى المتلقي .

كما أنها رسمت صوراً فنية رائعة استطاعت من خلالها حفر صورة فنية في ذهن القارىء بحيث لا يستطيع أحد نسيانها أو الأعراض عنها وبشكل متجدد ومتنوع.

أن الشاعرة قد تمكنت بفعل حسها الفني، ومعرفتها الغريزية بدلالات الموجودات التي تقع في حواسها من توظيف وتجسيم من انفعالات وهموم في نفسها داخل أطر جمالية محسوسة لها حضورها الفني، إذ ان (الفن ليس سوى توظيف المخيلة في خدمة الحاجات الداخلية التي تفرزها الشروط الخارجية جملة) [72].

وقد كانت صور الابيات تشف عنها انفعالات الشاعرة المباشرة أو الضمنية التي ترفدنا بها اللغة وأدواتها، وهذا ما أفصحت عنه أبيات الحزن والتأسي ، والهموم والإحباط .

وأختم كلامي ببيتين للخنساء تقول فيهما- :

يذكرني طلوع الشمس صخراً ... وأذكره لكل غروب شمس

فلولا كثرة الباكين حولي ... على اخوانهم لقتلت نفسي[73]

الخاتمة

اكتسبت الخنساء مركزها بين شعراء الأدب العربي بجدارة ، فألفت بمفردها مدرسة مهمة هي مدرسة الشعر العاطفي، ذلك لأنها اختصت بالرثاء والرثاء الصادق . وهذا الضرب من الشعر ترجمان العواطف وديوان المشاعر والانفعالات ، فقيل انها أشعر شعراء الرثاء ، فالخنساء تفجر شعرها بعد مقتل اخويها صخر ومعاوية ولا سيما اخوها صخرفقد كانت تحبه حبا لايوصف ، ورثته رثاء حزينا وبالغت فيه حتى عدت اعظم شعراء الرثاء ويغلب على شعرها البكاء والتفجع والمدح والتكرار لانها سارت على وتيرة واحدة الا وهي وتيرة الحزن والاسى وذرف الدموع وعاطفتها صادقة ونلاحظ ذلك واضحا من خلال اشعارها .

أما السيادة فهي اشمل من القيادة ، وبها تستكمل سائر عناصر البطولة الأخرى وتتوجها بتوظيفها بالصورة المثلى لخدمة أهداف الجماعة ومستقبلها ، ولقد اشتهر صخر بسيادة قومه وإثناء نفسه في سبيل عز القبيلة وسعادتها وعلو شأنها ، فاستحق هذه السيادة لما امتاز به من كل فعلٍ جليل في سبيل هذه الجماعة .

كما ذكروا في أشعارهم بأن السيادة تظل فيهم لا ينتزعها منهم أحد ، ولا يطاولهم فيها غريب فلا يهلك سيد إلا أخذ الأمر عنه غلام سيد ، وقد ظل هذا المعنى يتداول في قصائدهم حتى عُدَ ظاهرة من ظواهر الاعتزاز، وصورة من صور الفخر ومجالاً من مجالات السُؤد

فبرزت من خلالها صفات هذا البطل على اختلاف ان ومن أهم هذه الصفات التي أوردتها الخنساء في شعرها الرثائي لتثبت بها بطولة أخيها صخر في هذه المراثي ، وصفها له أنه ما يزال فارساً حديث السن في مقتبل عمره عندما أصيب في الحرب بطعنة نجلاء أرقدته حولاً حتى وفاته.

أما الصفات الحسية للبطل صخر في شعر الخنساء تضمنت هيئة البطل صخر وطبيعة قوامه وقدراته الجسمية كما تضمنت أيضاً كل ما يتعلق بالخيل والسلاح التي استخدمها في حروبه مبرزة من خلالها أهم الصور البطولية التي تحلى بها صخر . فهو يمتاز بالوجه الخالي من الندب أو أي شيء يعيبه وهو كالبدر المنير الذي يزيل بنوره ظلام الليل فهو كالشمس الساطعة والتي تعم الناس بالخير ، وكما امتاز برشاقة البدن وطول القامة وقوة البنية فهو كالأسد في قوته واقتحامه لغمار الحروب ، وكما امتاز أيضاً بقوة وطول الساعدين فلا يقدر أياً من الأعداء اجتيازهما وتمثل هذه الصفة أحد صفات الشجاعة المادية .

الصفات المعنوية التي تجسدت فيها بطولة صخر والتي عرضتها الخنساء في شعرها عنه فعرضت من خلالها أهم الصفات التي تحلى بها صخر فكانت صفة الكرم من أهمها والتي عُرِفَ بها صخر ، فهو الكريم الجواد المعطاء بلا حدود والذي يجير الأرامل والأيتام ويحفظ الجار ويكرمه ، ونراه منجد السائل والمحروم وكل من يطرق بابه في أوقات الشدة

أما الصفة المعنوية التي اشتهر بها وتعد أيضاً ضمن إطار المروءة هي – الشجاعة المعنوية – فنرى صخراً قد عُرِفَ بهذه الصفة المتميزة فتخللت كل دور بطولي يقوم به البطل ضمن مختلف المواقف ذات الصلة بحياة قومه ، فهو كالأسد في اقتحام غمار الحروب والالتحام مع الأعداء ، وكذلك نراه منجد الجار وذاباً عن الحرمات والنساء فنراه شجاعاً متزناً غير مندفعاً وغير منحدر إلى حضيض التخاذل والإحجام. أما فيما يتعلق بنواحي – المروءة الأخرى – فنراه متحلياً بفضائل الأخلاق العربية فهو الصادق والحازم الوقور ، والصابر على الخطوب الجمة ، والوفي الحافظ للأمانة والعهد، وحامي الجوار وحافظاً لحقوقه والمحرر للأسرى من رقة الذل ، وهو العفيف المدافع عن العرض والقبيلة ونسائها ، والتزام ألليين تجاه أبنائها ، والقوة تجاه أعدائها ، ويجابه الظلم بالظلم على أساس من الحق .

وأخيراً وبعد الانتهاء من عرض أهم النتائج التي توصلنا إليها من استعراضنا لهذه الصفات الحسية والمعنوية، نقر بأن صخراً فعلاً استحق لقب البطولة والأبطال لما تحلى به من سمات أهلته لهذه المرتبة العليا الرفيعة والتي قلما تحلى بها بطل من الأبطال .

الهوامش

---

(1) الاغاني ،ابو فرج الاصفهاني ، دار صادر بيروت – لبنان.ط 3 /1985م.ج15/286 .ينظر الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري ج 15 ،26 .

(2) ينظر جواهر الادب،احمد الهاشمي،ج1 ،127. ينظر: الموجز في الادب العربي وتاريخه/حنا الفاخوري/المجلد الاول /دار الجيل /بيروت/طبعة منقحة ومزيدة/الطبعة الثالثة/2003م .

(3) المصدر نفسه:ج128/1.

* سورة آل عمران 200.

(4) ديوان الخنساء:7.

(5) التخيل:جان بول سارتر، ترجمة د. نظمي لوقا: 34-35 .

(6) مبادئ النقد الأدبي : ريتشارد، ترجمة: د. مصطفى بدوي: 239.

(7) عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة، نائل حنون: 98، وانظر: ملحمة كلكامش، طه باقر: اللوح الثالث، العمود الرابع: 97.

(8) تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة: عبد الحليم النجار: 48/1، وانظر: الصورة في الشعر العربي

حتى القرن الثاني الهجري، د. علي البطل: 223، و: المطر في الشعر الجاهلي، د. أنور أبو سويلم: 78 وما بعدها.

(9) ديوان الخنساء : ط – 3 جديدة محققة . دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت 1978 م :38

(10) المصدر نفسه:86.

(11) المصدر نفسه:23.

(12) المصدر نفسه:19.

(13) المصدر نفسه:58.

(14) المصدر نفسه:43.

(15) المصدر نفسه:106.

(16) المصدر نفسه:

* أسعديني: أعينيني على البكاء

(17) الديوان: 53.

(18) نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، السفر الخامس: 165.

(19) ديوان الخنساء:24.

(20) المصدر نفسه:

(21) المصدر نفسه:

(22) المصدر نفسه:33.

(23) كتاب الصناعتين:ابي هلال العسكري:275 .

(24) الديوان:86.

(25) المصدر نفسه:88

(26) المصدر نفسه:89

(27) المصدر نفسه:106.

(28) الشعر كيف نفهمه، ونتذوّقه، أليزابث دور، ترجمة د. محمد إبراهيم الشوش: 089

(29) الديوان :57.

(30) المصدر نفسه:56

(31) المصدر نفسه:57

(32) المصدر نفسه:60

(33) المصدر نفسه:60

(34) المصدر نفسه:63.

(35) المصدر نفسه:63

(36) المصدر نفسه:46.

(37) المصدر نفسه:31.

(38) المصدر نفسه:39.

(39) المصدر نفسه:38

(40) المصدر نفسه:32.

(41) شرح ديوان الخنساء، بالإضافة إلى مراثي ستين شاعرة من شواعر العرب:18، انظـــر: 28-35،33،63،58،51،42،38 .

* الأيد: القوي الشديد

(42) المصدر نفسه : 71.

(43) المصدر نفسه:71

(44) المصدر نفسه:51.

(45) المصدر نفسه:51

(46) المصدر نفسه:54

(47) المصدر نفسه:51

(48) المصدر نفسه:56

(49) المصدر نفسه:28

(50) تساؤلات الشعراء وجدلية الحياة، د. أحمد إسماعيل النعيمي، مقالة منشورة في صحيفة القادسية، عدد (5626)، السنة (19) بتاريخ 1998/11/15م.

* الطرب: الشوق واللهفة

(51) ديوان الخنساء:22 .

(52) المصدر نفسه:43.

(53) شرح ديوان الخنساء: 54-55.

(54) المصدر نفسه :23

(55) المصدر نفسه :56.

(56) المصدر نفسه :54.

(57) المصدر نفسه :55

(58) الموجز في الادب العربي وتاريخه : حنا الفاخوري ،المجلد الاول:293،دار الجيل /بيروت/طبعة منقحة ومزيدة /الطبعة الثالثة /2003م _1424ه

* الخوالد: الهموم الدائمة.

(59) شرح ديوان الخنساء:4.

(60) المصدر نفسه :6

(61) ينظر: الاسطورة في الشعر العربي – قبل الاسلام – د. أحمد إسماعيل النعيمي: 125 وما بعدها.

(62) مقالات في الشعر الجاهلي، يوسف اليوسف: 337 .

(63) الجامع في الأدب العربي :شوقي ضيف،291، دار المعارف،مصر،ط1،

(64) نقد الشعر، قدامة بن جعفر: 118.

(65) ينظر: شعر الرثاء في العصر الجاهلي ، د. مصطفى عبد الشافي الشورى، 209.

(66) المصدر نفسه :209

(67) المصدر نفسه : 5.

(68) جواهر البلاغة :احمد الهاشمي :ج1، 128.

(69) وحدة القصيدة في الشعر العربي، حياة جاسم: 182.

(70) ينظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة: 66/1، و: حلية المحاضرة، الحاتمي: 205/1.

(71) ينظر: تحرير التحبير، ابن ابي الإصبع المصري: 169 وما بعدها.

(71) خصوبة القصيدة الجاهلية ومعانيها المتجددة، محمد صادق حسن عبد الله: 281.

(72) بحوث في المعلقات، يوسف اليوسف:10 .

(73) ديوان الخنساء:77

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الأسطورة في الشعر العربي قبل الاسلام ، د. أحمد إسماعيل النعيمي ، ط1, دار الشؤون الثقافية العامة0 بغداد، 2005م
- الاغاني ، ابو فرج الأصفهاني دار صادر بيروت – لبنان.ط 3 /1985م.ج15 .
- بحوث في المعلقات، يوسف اليوسف،وزارة الثقافة،1978 .
- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة: عبد الحليم النجار،دار المعارف ،ط5،ب ت.
- تحرير التحبير، ابن ابي الإصبع المصري،تقديم وتحقيق حنفي محمد شرف،ط1،المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية لجنة احياء التراث.
- تساؤلات الشعراء وجدلية الحياة، د. احمد إسماعيل النعيمي ،مقالة منشورة في صحيفة القادسية ، عدد (5626)، السنة(19) بتاريخ 1998/11/15 م.
- التخيل:جان بول سارتر، ترجمة د. نظمي لوقا،نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع،2011.
- الجامع في الأدب العربي :شوقي ضيف، دار المعارف،مصر،ط1،
- جواهر البلاغة، احمد الهاشمي،ج1،مؤسسة المعارف ــ بيروت ــ ط2، المحقق لجنة من الجامعيين.
- حلية المحاضرة، الحاتمي،دراسات في الشعر،ج1 ،2012.

- خصوبة القصيدة الجاهلية ومعانيها المتجددة دراسة تحليلية ، محمد صادق حسن عبد الله،دار الفكر العربي للطباعة والنشر،1985.
- ديوان الخنساء، ط3 جديدة محققة. دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت 1978 م .
- شعر الرثاء في العصر الجاهلي ، د. مصطفى عبد الشافي الشورى،الشركة المصرية العلمية ،1995.
- الشعر كيف نفهمه، ونتذوّقه، أليزابث دور، ترجمة د. محمد إبراهيم الشوش،بيروت ، ط1 ، 1961.
- الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق:احمد محمد شاكر، دار المعارف،ط2 ، ج 15 .
- الصورة في الشعر العربي حتى القرن الثاني الهجري، د. علي البطل.دار الأندلس _ ط2ـ 1981.
- عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة، نائل حنون،دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد،1987.
- كتاب الصناعتين:ابو هلال العسكري ، تحقيق: علي محمد البجاوي – محمد أبو الفضل إبـــراهيم، دار الفكر العربي،1971.
- مبادئ النقد الأدبي، : ريتشارد، ترجمة: د. مصطفى بدوي، مؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة ،1963.
- ملحمة كلكامش، طه باقر: اللوح الثالث، العمود الرابع.
- المطر في الشعر الجاهلي، د. أنور أبو سويلم ، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع .
- مقالات في الشعر الجاهلي، يوسف اليوسف، وزارة الثقافة الفلسطينية,, 2001.
- الموجز في الأدب العربي وتاريخه،حنا الفاخوري،المجلـــد الأول ،دار الجيـــل ،بيروت،طبعـــة منقحـــة ومزيدة،ط3،2003م .
- نقد الشعر، قدامه بن جعفر،تحقيق كمال مصطفى ،مكتبة الخانجي،القاهرة،ط3، 1973 .
- نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، السفر الخامس، مطبعة مصر، 1924.
- وحدة القصيدة في الشعر العربي، حياة جاسم، الجمهورية العراقية، وزارة الإعلام، مديرية الثقافة : 1972.